جامعة عين شمس
كلية التربية
قسم فلسفة واجتماع

مراحل البحث عن اليقين عند مصطفي محمود

إعداد

أ / ياسمين محمد محمود عبد المحسن

تحت إشراف

أ.د/ بركات محمد مراد
أستاذ الفلسفة الإسلامية
كلية التربية- جامعة عين شمس

د/ إيمان محمد عمران
مدرس الفلسفة الإسلامية
كلية التربية- جامعة عين شمس

٢٠٢٠م

ملخص البحث

ويروى الدكتور مصطفي محمود عن الشك وأهميته للإنسان:

ليس بإنسان من لم يتوقف لحظة في أثناء عمره الطويل ليسأل نفسه. ما الحكاية بالضبط. من أنا ومن أكون، ومن أين جئت وإلى أين أذهب، وما مصيري وما الحكمة من الألم، وما الهدف من الوجود، وعلام هذا اللهاث المجنون وآخر السعي موت وتراب ولا شيء.. إن الحياة دون إيمان ودون يقين بوجود إله عادل هي عبث صرف بلا معنى وبلا سند وبلا رصيد.. وهي عذاب بلا حكمة وألم بلا عوض ومغامرة بلا عائد ومشروع بلا ضمان.

والإنسان إذا خلت حياته من الله هو مشروع فاشل نهايته اليأس والانتحار. وإذا كانت الحياة استمرت ثلاثة آلاف مليون سنة فلأن الله فيها ومعها ومن ورائها ومن حولها يهديها ويدعمها ويساندها وينورها.. ووجوده سبحانه وتعالى ضرورة مطلقة.

الإنسان والله والكون قضية واحدة لا يفهم إحداها إلا بالأخرى ولا ينفصل طرف منها عن الآخر فالله يفارقنا بعلوه، ولكنه فينا واقرب ألينا من حبل الوريد. فأينما تولوا فثم وجه الله. وهو معكم أينما كنتم ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم بل هو الجمال في كل جميل والقوة في كل قوى والقدرة في كل قادر وهو سبحانه نور السموات والأرض. ويؤكد لنا الدين هذا الشعور دون تفلسف فيعطي المؤمن جرعة من الراحة والسكينة والطمأنينة تكفي مدى عمره فلا يعود يسأل أو يتسأل وإنما ينطلق يسعى ويعمل جاهداً في سبيل الخير والبر. غير ناظر إلى مكافأة أو عوض لأن الله ذاته هو العرض. وليس بعد الله شيء ثم هو يسعى دون خوف من مرض أو موت فهو يعلم أنه لا موت وإنما كدح إلى الله وسير في المنازل وصعود في معراج من التحولات لا يعلم كيف تكون فذلك غيب ولكن إيمانه بغنيه ويمتد به عبر الغيب وبطول الشهادة كلها.

فالدين في ذاته علم هو علم بالله لا ينفصل عن العلم بمخلوقاته، فالمعرفة بالصانع لا تنفصل عن المعرفة بصفته.. بل إن كان معرفة منه تؤيد الأخرى وتعضدها ولا تناقضها أو تنفيها.. فالكون كله بما يتجلى فيه من وحدة القوانين ووحدة الخامة وانسجام الألوان والأشكال، هو خير شاهد على وحدة الصانع.. والكون هو مجال لقدرات الله وأفعاله وصفاته[1].

مقدمة:

المفكر الحقيقي لا يجب أن يؤمن بالأشياء على طول الخط أو يكفر بها على طول الخط، ولكنه بطبيعته يعيد النظر دائماً في الأشياء.. وربما في الطريق نحو الإيمان تحدث عثرات.. لكنه يصل بالعقل والعلم في النهاية إلى الحقيقة ما دام مخلصاً وواعياً للفارق بين المناقشة بالعقل والجدل بالهدم.. وهذا هو حال د. مصطفي محمود الذي تقلب كثيراً في الأفكار، وقبل وفاته بعدة أشهر قال وعمره يناهز ٨٧ عاماً (لو سئلت بعد هذا المشوار الطويل من أكون؟! هل أنا الأديب القصاص أو المسرحي أو الفنان أو الطبيب؟ قلت: كل ما أريده أن أكون مجرد خادم لكلمة (لا إله إلا الله)[٢].

وهكذا كانت رحلة الدكتور مصطفي محمود

وهكذا كانت من الشك إلى اليقين تمهيداً لفض الاشتباك بين العلم والإيمان، وذلك عن طريق علو النفس فوق المادة إلى ما هو أبعد أفقاً وأرحب مدي.

هل استوعبنا الموضوع؟ الأمر ليس بسيطاً بالمرة.. الموضوع الذي مر به فيلسوف مصر الحديثة.. أنه ليس حدثاً عادياً يمكن أن نتناوله ككلام متداول.. بل يجب أن نضع الصورة في إطارها الصحيح.. إن هذه المرحلة التي مر بها الدكتور (مصطفي محمود) تاريخية لا تحدث إلا للفلاسفة المتأذين من الغث الثقافي المحيط بالمجتمع؟؟ ويريدون إصلاح هذا المجتمع.. فكيف يصلحونه والمعارف أصابتها الشوائب.. فيكون الطريق هو عدم التسليم بأي شيء محيط ويحول ذاكرته إلى صفحة بيضاء ليبدأ في دراسة الوجود أو أول (١- ٢- ٣) ليبدأ في دراسة الأشياء والحقائق، كل على حدة وكلما تأكد من صحة شيء واهميته تحول إلى الإيمان به وهكذا[٣].

الحقيقة أن كلام الدكتور (مصطفي محمود) خير شرح للحالة التي ثار حولها الجدل، وظلت تلاحقه في كل أزمة يمر بها فيما بعد من بداية (للتفسير العصري للقرآن ثم الشفاعة)..

الإلحاد الذي يقصده الدكتور (مصطفي محمود) هنا ليس المقصود به الشرك، حاشاً لله، وليس المقصود الكفر بالله أو أنه الإلحاد الذي يتعلق به (الماديون والجدليون أو الهيجليون).

ولكن ما يقصده هو كما أخبرنا (أنا عمري ما شككت في وجود الله سبحانه وتعالى.. وأنه الواحد الأحد القهار.. ولم ينتبني الشك مطلقاً في القدرة الإلهية وأنها تدير هذا الكون الكبير من حولنا وأن هذا الكون باتساعه الكبير هو خير برهان ودليل على وجود الخالق الأعظم فهو يفصح ويثبت ويبرهن بل يهتف (لا إله إلا الله محمد رسول الله)[٤].

أولاً: إشكالية البحث:

والشك ليس كفراً لأنه قد يتسلل إلى القلب بشكل لإرادي.. والله سبحانه وتعالى أخبرنا عن أنبيائه جميعاً أنهم وصلوا لحقيقة أن للكون إلهاً عظيماً أكبر من الإدراك بحواسهم من قبل أن تأتيهم الرسالات.

عموماً، إذا هاجمت الملحدين يقال لك "وأين حرية الاعتقاد التي يكلفها الدين والدستور".. وإذا دافعت عنهم تضع نفسك في مواجهة صريحة مع ضميرك ورجال الدين وغالبية المجتمع.. لكن المؤكد هو أن التفكير ليس حراماً.. والبحث عن الإيمان بالعقل ليس شططاً أو "زندقة".. ولكن المهم هو : كيف.. وبأي منهج.. وما الهدف؟![٥].

فالفكرة أشمل من ذلك لأننا نتكلم عن البحث. عن اليقين سواء من شخص متدين أو كافر، الخطأ ثم التوبة الشطط الفكري والشك ثم التفكير بالعقل والبحث خلال رحلة إيمانية تنتهي بـ "علاقة" ربانية تشعر معها أنك وصلت إلى طريق الهدى من جديد.

والحكاية أكبر من حصرها في جلسات النصح والإرشاد في حضرة رجال الدين.. بل أصبحت قضية عامة للمجتمع كله بدليل توقف الرئيس عبد الفتاح السيسي عندها في لقائه ذات مرة مع رؤساء الصحف المختلفة.. فقد تكلم عن حرية العقيدة التي منحها الل للإنسان.. فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..[٦].

ثانياً: أهداف البحث:

البحث الراهن يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:

١- التأكيد على دور مصطفي محمود في البحث عن اليقين بوجود الله عز وجل بعيداً أبعد ما يكون عن الإلحاد.
٢- التعرف على ظاهرة الإلحاد وأبعادها وأثرها في المجتمع.
٣- بيان دور مصطفي محمود في التعرف على وجود الله عز وجل من خلال معجزاته في الكون والإنسان.

ثالثاً: تساؤلات البحث؟

- وينطلق البحث من التساؤلات الآتية:

١- بيان مفهوم الإلحاد وبداياته وجذوره وأثره في المجتمع؟
٢- التعرف على مفهوم اليقين والحقيقة التي توصل إليها مصطفي محمود وعلاماته؟
٣- بيان ما إذا كان مصطفي محمود ملحداً حقاً أم باحثاً عن الحقيقة؟

رابعاً: مفاهيم البحث:

١] مفهوم الشك:

لسنا بحاجة إلى التدليل على كذب آرائنا السابقة بل يكفي أن نجد فيها أي سبب للشك إذ ليس الشك مقصوراً هنا لنفسه بل لامتحان معارفنا وقوانا العارفة ولسنا بحاجة كذلك إلى استعراض تلك الآراء بل يكفي أن نستعرض المبادئ فإن هدم الأساس يجر وراءه البناء كله.

إذن فأنا أشك في الحواس لأنها خدعتني أحياناً ولعلها تخدعني دائماً وليس من الحكمة الاطمئنان إلى من خدعني ولو لمرة واحدة. وأنا أشك في استدلال العقل لأن الناس

يخطئون في استدلالتهم ولكني في هذه الحالة من الشك المطلق أجد شيئاً يقاوم الشك في كل شيء ما خلا شكي ولما كان الشك تفكيراً فأنا أفكر ولما كان التفكير وجود فأنا موجود تلك حقيقة مؤكدة وواضحة خرجت لي من ذات الفكر فلها ميزة نادرة.

هي أنني أدرك فيها الوجود والفكر متحدين اتحاداً لا ينفصم فمن جهة يجب البرهنة على وجود الله الاعتماد على العقل والأفكار الواضحة كوسائل لا تخدع، ومن جهة أخرى لأجل التحقق من أن العقل لا يخدع فيجب العلم أولاً بوجود الله وصدقه، وعلى ذلك نرى أن لهذه النظرية أثراً كبيراً.

فإذا كانت الحقيقة خلقاً حراً فلم يعد لها قيمة بالذات وإنما قيمتها أتيه من أمر الله وقد كان في مقدور الله أن يقرر نقيضها كما يقول ديكارت ويكرر القول، وإذن فباستطاعتنا أن نشك فيها مهما بدت ضرورية لكنها ممكنه في نفسها بالإضافة إلى الله فصدق الله ضمان الوضوح ومعنى الاثنين أن بين العقل وبين الحقيقة مناسبة وملائمة لأنها من صنع الله(٧).

٢] الإلحاد:

نجد في نهاية المطاف، أن المُلحد إنسان كسول جداً، فهو بدل أن يفكر في الكون وفي أسباب وجوده يريد من الآخرين أن يفسروا له سبب وجود الكون، وحين يقوم الآخرين بتفسير وجود الكون لا يقبل ما يقولون، بل يريد منهم أن يقدموا دليلاً يقنعه هو، حتى وأن كان الدليل المطلوب يتناقض مع المدلول، وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل إن الإلحاد في الأصل نابع من رغبة ذاتية في الإلحاد وإلا فالمنطق يقول بأن وجود الكون يجب أن يكون له تفسير، والعاقل يبحث عن أكثر التفسيرات المنطقية قرباً من الحقيقية، فإن كان المؤمنون يملكون تفسيراً خاطئاً، فيجب أن يواجههم الملحد بتفسير أكثر صواباً وأقل خطئاً، ولا يكتفي فقط بتقييم تفسيرهم وتخطئته ووصف أدلتهم بأنها ليست أدلة!

نستخلص في النهاية إلى أهمية مقاومة الإلحاد كظاهرة هدامة تساهم في تأجيج الشعور بالصراع وإذكاء العنف بين فئات المجتمع.. الإلحاد عنوان لليأس والسواد.. فلنكسر حاجز الصمت عن الظاهرة ولنخرجها للنور ونواجهها بكل صراحة وشجاعة .. ونحن أهل لها .. فمصر هي بلد الإيمان والأديان منذ قديم الزمان والخير باق فيها إلى يوم الدين(٨).

فالدكتور مصطفي محمود يكشف لنا عن سر الشقاء والمعاناة التي نتكبدها في حياتنا، وعن سبب فساد المجتمع.

فهو يؤكد أننا معاقبون بهذا الضنك في حياتنا لأننا نسينا الله وغرقنا في الشهوات الدنيوية .. ففي سورة طه يقول الله سبحانه وتعالى: (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا) ويتسأل د. مصطفي محمود .. أليس عالم اليوم قد تلخص كله في هذه الكلمة البليغة (الضنك) و(الأغراض).. أليس العالم قد أعرض تماماً عن كل ما هو رباني وغرق تماماً في كل ما هو علماني ومادي ودنيوي وشهواتي...؟!

والحل الوحيد لأن نعيش سعداء في الدنيا والأخرة أن نعود إلى ذكر الله وإتباع تعاليم الإسلام ومبادئ الدين الحنيف .. وليس بإطلاق اللحية وتقصير الجلباب.

فأذكر الله عسى أن يجعلك راضياً مرضياً[٩].

٣] اليقين بالله ما معناه:

معناه أن العدل موجود والرحمة موجودة والمغفرة موجودة.

معناه أن يطمئن القلب وترتاح النفس ويسكن الفؤاد ويزول القلق فالحق لابد واصل لأصحابه.

معناه.. لن تذهب الدموع سدى ولن يمضي الصبر بلا ثمرة ولن يكون الخير بلا مقابل ولن يمر الشر بلا رادع ولن تفلت الجريمة بلا قصاص.

معناه أن الكرم هو الذي يحكم الوجود وليس البخل. وليس من طبع الكريم أن يسلب ما يعطيه، فإذا كان الله منحنا الحياة فهو لا يمكن أن يسلبها بالموت وإن الموت لا يمكن أن يكون سلباً للحياة. وإنما هو انتقال بها إلى حياة أخرى بعد الموت ثم حياة أخرى بعد البعث ثم عروج في السماوات إلى ما لا نهاية.

معناه أنه لا عبث في الوجود وإنما حكمة في كل شيء وحكمة من وراء كل شيء. وحكمة في خلق كل شيء .. في الألم حكمة وفي العذاب حكمة.. وفي المعاناة حكمة وفي القبح حكمة وفي الفشل حكمة وفي العجز حكمة وفي القبح حكمة وفي الفشل حكمة وفي العجز حكمة وفي القدرة حكمة.

معناه ألا يكف الإعجاب ولا تموت الدهشة ولا يفتر الأبهار ولا يتوقف الإجلال، فنحن أمام لوحة متجددة لأعظم المبدعين.

معناه أن تسبح العين وتكبر الأذن ويحمد اللسان ويتيه الوجدان ويبهت الجنان.

معناه أن تتدفق نافورة القلب بالمشاعر وتحتفل الأحاسيس بكل لحظة وتزف الروح كل يوم جديد كأنه عرس جديد.

معناه ألا تعرف اليأس ولا تذوق القنوط.

ومعناه أن تذوب همومنا في كنف رحمة الرحيم ومغفرة الغفار.

ألا يقول ربنا تبارك وتعالى (إن مع العسر يسراً) [الشرح] وأن الضيق يأتي وفي طياته الفرج. فأي بشرى أبعث للاطمئنان من هذه البشرى[١٠].

خامساً: نحو مدخل نظري لدراسة ظاهرة الإلحاد للدكتور/ مصطفي محمود:

يقول الدكتور مصطفي محمود:

(أنا عمري ما شككت في وجود الله سبحانه وتعالى.. وأنه الواحد الأحد القهار.. ولم ينتبني الشك مطلقاً في القدرة الإلهية وإنما تدير هذا الكون الكبير من حولنا وأن هذا الكون باتساعه الكبير هو خير برهان ودليل على وجود الخالق الأعظم ويثبت ويبرهن بل يهتف (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

الشك كان في "مسألة القضاء والقدر" "والجبر والاختبار" "والجنة والنار" ونوع الخلود وشكله ومظهره، وكان رجال الدين يعتبرون أن مجرد التفكير في هذه المسائل يُعتبر الكفر بعينه .. وأنا لم أكن كافراً!.. وهذا هو السبب في أن كامل الشناوي قال لي فيما

بعد: "قديماً كانوا يفكرون ويتعمقون في مثل هذه الشكوك دون أن يعرضوا للشنق وهي قضية الجبر والاختيار .. والقضاء والقدر .. والجنة والنار .. والبعث والخلود"[١١].

إن الإلحاد المقصود هذا هو إلحاد صحي .. ليس إلحاد الجماعات الشمولية الذي يريد عدد من أفرادها الكسالى أن يتخلصوا من عبء الفروض الدينية أو ما يلحق بها أو يبعدوا عن أذهانهم سبب ألام ضمائرهم فخلاصة أي كلام على إلحاد الدكتور مصطفي محمود تكون إنه إلحاد من أجل الوصول إلى الإيمان الحافظ وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب.

ومع هذا العقل العلمي المادي البحث بدأت "رحلة مصطفى" محمود في عالم العقيدة وعلى الرغم من هذه الأرضية المادية التي انطلق منها فأنه لم يستطيع أن ينفي وجود القوة الإلهية، أحياء وجمادات وأراض وسماء، هو الحركة التي كشفها العلم في الذرة وفي الـ"بروتوبلازم، وهو الحيوية الخالقة الباطنة في كل شيء".

وكما حدثنا الإمام الغزالي عن الأشهر الستة التي قضاها مريضاً يعاني ألام الشك، حتى هتف به هاتف باطني أعاده إلى يقين الحقيقة العقلية، وكشف له بهاء الحرية الروحية، ومكنه من معرفة الله، نجد مصطفي محمود يتحدث عن الحقيقة العقلية، وكشف له بهاء الحرية الروحية، ومكنه من معرفة الله، نجد مصطفي محمود يتحدث عن صوت الفطرة الذي حرره من سطوة العلم، وأعفاه من عناء الجدل وقاده إلى معرفة الله، وكان ذلك بعد أن تعلم في كتب الطب أن النظرة العلمية هي الأساس الذي لا اساس سواه[١٢].

وإذا استمعنا إلى كلام الدكتور مصطفي محمود "في عنفوان شبابي كان تيار المادية هو السائد، وكان المثقفون يرفضون الغيبيات فكان من الطبيعي أن أناثر بمن حولي". ولذلك كما يقول في أحد كتبه "احتاج الأمر إلى ثلاثين سنة من الفرق في الكتب، وآلاف الليالي منا لخلوة والتأمل مع النفس وتقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطرق الشائكة (من الله والإنسان) إلى (لغز الحياة والموت)، إلى ما أكتب اليوم على درب اليقين.

وبالرغم من اعتقاد الكثيرين أن مصطفي محمود، أنكر وجود الله عز وجل فإن الكلام السابق والتالي يوضح أن المشكلة كانت فلسفية في الحقيقة، فقد كان يبحث عن مشكلة الدين والحضارة، أو العلم والإيمان وما بينهما من صراع متبادل أو تجاذب[١٣].

وقتها قال عنه الشاعر كامل الشناوي "أن مصطفي محمود قد ألحد.. فهو يلحد على سجادة الصلاة، كان يتصور أن العلم يمكن أن يجيب على كل شيء. وعندما خاب ظنه مع العلم أخذ يبحث في الأديان، بدء بالديانات السماوية وانتهي بالأديان الأرضية ولم يجد في النهاية سوى القرآن الكريم"، وجاء في افتتاحية الكتاب "تقولون إن الله خلق الدينا لأنه لابد لكل مخلوق من خالق، ولا بد لكل صنعة من صنائع، ولابد لكل وجود ومن موجد، صدقنا وأمنا فلتقولوا لي إذن من خلق الله، أم أنه جاء بذاته، فإذا كان قد جاء بذاته وصح في تصوركم أن يتم هذا الأمر، فلماذا لا يصح في تصوركم أيضاً أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق وينتهي الإشكالي"[١٤].

يرى الدكتور مصطفي محمود أن عالم اليوم الذي نولد فيه هو عالم الشك والارتياب. لا شيء في عالمنا الذي نعيش فيه يوحي بالثقة والأمان، الظلم والعدوان والغدر وغلبة القوى على الحق والسائد في نطاق السياسة، الأديان تراجعت إلى منطقة الظل.. والحق أصبح يتيم الأبوين.

وفي هذا الجو الموبوء يمشي الدين يتحسس طريقه إلى جوار الحائط والحق اليتيم يحتاج إلى كوكبة من فطاحل المحامين للدفاع عنه.. والخروج من الشك القاتل يحتاج إلى تعبئة عقلية وروحية كاملة.

ولهذا كانت رحلتي منا لشك إلى الإيمان ضرورة، فالإيمان أصبح أكسير الحياة، وجرعة الإفاقة أصبحت الجرعة الضرورية في هذا العصر المسموم.

ولا مخرج لك من الجنون إلا الإيمان ويقينك بأن هناك خالقاً عادلاً وقادراً وعظيماً خلق هذا العالم . وأنه قدر الحساب والعقاب على كل ظالم، وأنه لا مهرب ولا مفر من إظهار الحق وإخفاء الحق.. وأن عمل كل منا سوف يطارده من المهد إلى اللحد وأنه طائرة المعلق في عنقه[١٥].

ولنتساءل:

هل دخل مصطفي محمود مؤخراً مستشفى للأمراض العقلية "الخانكة" هل أرتد عن الإسلام هل تنصر على أثر مرض خطير أصاب ابنته "أمل" التي رأت السيد المسيح في المنام وقال لها إذ لم يتنصر ابوك فلن تشفى أبداً فلما تنصر شفيت؟!

وإذا كان كل ما تقدم شائعات فمن هو صاحب المصلحة في أن يروج لمثل هذه الشائعات.. هل هم خصوم؟.. ايد خفية تحاول أن تسقطه في الخفاء؟! هل للمخابرات الإسرائيلية "الموساد" أصابع وراء كل ما حدث له مؤخراً؟!

ثم لماذا الشك أصلاً في فكر د. مصطفي محمود ؟!.. هل حين دخل كلية الطب ووقف أمام المشرحة أمام الجسد الميت وحاول أن يكشف الموت من خلال الكيمياء والطبيعة ففشل وتجسدت حيرته في السؤال الأزلي والأبدي : من أين وإلى أين؟! ما الذي قاد د. مصطفي محمود إلى الشك في وجود الله سبحانه وتعالى .. ما هي الأسس التي أستند عليها وجرفته بعيداً إلى بحار الشك المظلمة؟! والذي استتبع أن يكون د. مصطفي محمود جمعية للكفار.

إنها رحلة من مصطفي محمود العالم والمفكر والأديب والإنسان[١٦].

ويروى مصطفي محمود عن رحلته الإيمانية:

كنت أدرج من الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة وربما قبل ذلك في مطالع المراهقة حينما بدأت أتساءل في تمرد.

- تقولون أن الله خلق الدنيا

كنت أقول هذا فتصفر من حولي الوجوه وتنطلق الألسن تمطرني باللعنات وتتسابق إلى الكلمات عن يمين وشمال ويستغفر لي أصحاب القلوب التقية ويطلبون لي

الهدى. ويتبرا مني المتزمتون ويجتمع حولي المتمردون فنغرق معاً في جدل لا ينتهي إلا ليبدأ ولا يبدا إلا ليسترسل.

وتغيب علي في تلك الأيام الحقيقة الأولى وراء ذلك الجدل. إن رحلتي من الشك إلى الإيمان هو زهوي بعقلي الذي بدأ يتفتح وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها.. كان هو الحافز دائماً.. وكان هو المشجع وكان هو الدافع .. وليس البحث عن الحقيقة ولا كشف الصواب.

لقد رفضت عبادة الله لأني استغرقت في عبادة نفسي وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكرى مع انفتاح الوعي وبداية الصحوة من مهد الطفولة.

كانت هذه هي الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الذى يتكرر كل يوم.

وغابت على أيضاً أصول المنطق وأنا أعالج الأمور ولم أدرك أني أتناقض مع نفسي إذ كيف اعترف بالخالق ثم أقول ومن خلق الخالق فأجعل منه مخلوقاً في الوقت الذي أسميه خالقاً وهي السفسطة بعينها.

ثم إن القول بسبب أول للوجود يقتضي أن يكون هذا السبب واجب الوجود في ذاته وليس معتمداً ولا محتاجاً لغيره لكي يوجد. أما أن يكون السبب في حاجة إلى سبب فإن هذا يجعله واحدة من حلقات السببية ولا يجعل منه سبباً أول.

لم يكن الأمر سهلاً.. لأني لم أشاء أن أخذ الأمر مأخذاً سهلاً .. ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل.. ولقادتنى الفطرة إلى الله ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء وضعف صوت الفطرة حتى صار همساً وارتفع صوت العقل حتى صار لحاجة وغروراً واعتداداً .. والعقل معذور في إسرافه إذ يرى نفسه واقفاً على هرم هائل من المنجزات وإذ يرى نفسه مانحاً للحضارة بما فيها من صناعة وكهرباء وصواريخ وطائرات وغواصات وإذا يرى نفسه قد اقتحم البر والبحر والجو والماء وما تحت الماء.. فتصور نفسه القادر على كل شيء وزج نفسه في كل شيء وأقام نفسه حاكماً على ما يعلم وما لا يعلم[١٧].

بهذا العقل العلمي المادي البحث بدأت رحلتي في عالم العقيدة وبالرغم من هذه الأرضية المادية وهذا الانطلاق من المحسوسات الذي ينكر كل ما هو غيب فإني لم استطيع أن أنفى أو أستبعد القوة الإلهية.

كان العلم يقدم إلى صورة عن الكون بالغة الإحكام والانضباط في كل شيء من ورقة الشجر إلى جناح الفراشة إلى ذرة الرمل فيها تناسق ونظام وجمال. الكون كله مبني وفق هندسة وقوانين دقيقة.

والوجود كان في تصوري لا محدوداً لا نهائياً إذ لا يمكن أن يحدد الوجود إلا العدم.. والعدم معدوم .. ومن هنا يلزم منطقياً أن يكون الوجود غير محدود ولا نهائي.

ولا يصح أن نسأل (من الذي خلق الكون). إذ أن السؤال يستتبع أن الكون كان معدوماً في البداية ثم وجد .. وكيف يكون لمعدوم كيان. إن العدم معدوم في الزمان والمكان ولا يصح أن نسأل (من الذي خلق الكون). إذ أن السؤال يستتبع أن الكون كان معدوماً في

البداية ثم وجد .. وكيف يكون لمعدوم كيان. إن العدم معدوم في الزمان والمكان وساقط في حساب الكلام ولا يصح القول بأنه كان. وبهذا جعلت من الوجود حدثاً قديماً أبدياً أزلياً ممتداً في الزمان لا حدود له ولا نهاية. وأصبح الله في هذه النظرة هو الكل ونحن تجلياته.

وهكذا أقمت لنفسي نظرية تكتفي بالموجود .. وترى أن الله هو الوجود.. دون حاجة إلى افتراض الغيب والمغيبات.. ودون حاجة إلى التماس اللامنظور.

وبذلك وقعت في أسر فكرة "وحدة الوجود الهندية" وفلسفة سبينوزاً.. وفكرة برجسون عن الطاقة الباطنة الخلاقة وكلها فلسفات تبدأ من الأرض من الحواس الخمس .. ولا تعترف بالمغيبات.

وحيث أكون أنا الواحد وأنا الأشياء .. إله يشبه النور الأبيض .. واحد .. وبسيط ولكنه يحتوى في داخله على ألوان الطيف السبعة. وعشت سنوات في هذا الضباب الهندي وهذه الماريجوانا الصوفية، ومارست اليوجا وقرأتها في أصولها وتلقيت تعاليمها على أيدي أساتذة هنود. وسيطرت على (فكرة التناسخ) مدة طويلة وظهرت روايات لي مثل (العنكبوت) (والخوج من التابوت). ثم بدأت أفيق على حالة من عدم الرضا وعدم الاقتناع واعترفت بيني وبين نفسي أن هذه الفكرة عن الله فيها الكثير من الخلط. ومرة أخرى كان العلم هو دليلي ومنقذي ومرشدي[١٨].

رأي مصطفي محمود في الحرية:

"إن إنكار الحرية إهدار للمسئولية.. وإنكار للأخلاق ولمغزي التاريخ ومعني التطور .. أنه يحول الحياة إلى عبث .. ويحول الأدميين إلى تماثيل . فلو كان الغد مرصوداً في لوح فما معني السعي والاجتهاد وإعمال الفكر والكفاح".

أنا وأنت والناس جئنا إلى الدنيا كما تجيء البضائع في صناديق .. كل من عليه بطاقة صغيرة مكتوب عليها صنفه، مصري .. مسلم ذكر .. وزنه سبعة أرطال بشرته بيضاء.. وشعره أسقر، وعيونه عسلية .. لم يسألنا أحد رأينا ونحن في طريقنا إلى الدنيا.. إننا نولد كالديدان .. ولكننا بعد سنوات قليلة نصنع شرائق ثم ننطلق منها فراشات ذوات أجنحة .. ونطير في الجهات الأربع .. إننا نستطيع بعد أن ننضج أن نناقش الأديان، ونستطيع أن نرفض الكتب، ونستطيع أن نقول لا .. بقوة وعنف ونستطيع أن نحارب المرض والجهل والفقر، ونستطيع أن نغير أوطاننا.. وأن نغير أذهاننا، وأذهان الناس.. ونستطيع إذا توفرت لنا الإمكانيات المادية أن نترك الكرة الأرضية كلها وتذهب تجوب الفضاء وراء كواكب جديدة .. ونستطيع أن تبني وأن نهدم نستطيع أن نأكل وأن نصوم.. وأن نقبل الحياة.. وأن نرفضها.

إن الاختيار قضاء مبرم.. والحية حقيقة فينا مثل العبودية .. وإن نصفنا جثة، ولكن النصف الآخر روح .. نصفنا جامد ألي كتروس الساعة.. ولكن النصف الآخر متحرك مرن كاللجام يرخي ويشد ويتحكم ويوقف الآلة كلها إذا أراد.

أن قليلاً من التأمل يطلق أمامنا حقيقة رهيبة أننا نستطيع أن نفعل أي شيء.. ليس هناك قانون أعلى من قانون حياتنا نفسه.. وأننا لنحس بعد هذا التأمل بثقل الحرية على كاهلنا..

بثقل هذه الأمانة.. فنود لو نلقى بها ونذهب مغمضي العيون إلى اقدارنا.. ويتجاذبنا الخوف والطموح .. والإقدام والأحجام.. ونعيش معلقين على حبال القلق ونحن نتساءل ماذا نفعل؟.. وأين الطريق الذي يصعد وأين الطريق الذي يهبط؟..
إن الحرية حقيقة.. هي صرخة أحسها في داخلي وتحسها في داخلك فتعلوا على نعيب الكتب الصفراء وتغرقها..
أنت حر.. وحياتك مغامرة.. وغدك مجهول|..
أنت الذي تقم أصنامك وأنت الذي تحطمها ، فأمضى في طريقك ولا تنس هذه الأمانة التي تحملها على كتفيك.. الحرية..[١٩].

هل الفلسفة ملحدة؟

المقولة المشهورة عن الفلسفة "الفلسفة رأس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة، والبراهين الباهرة ومن تلبس بها – تعليماً أو تعلماً – قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان. لذلك فالفلسفة حرام بالإطلاق. مثل (الخمر والميسر، وقتل النفس بدون حق)[٢٠].

- بعبارة مباشرة: إنها عدوة الدين وضده الذي من اللازم محاربته، ومحاربة أصحابه بالسيف قبل القلم، حتى لا ينفث سمه بين الناس، فيفسد حالهم وحال إيمانهم، فهل من القول صحيح، أن أنه قائم على الجهل فقط؟ هل الفلسفة – بالفعل – تورث الإنسان الزيغ والزندقة، والحيرة والحرمان، والخذلان، وعميان البصيرة والإلحاد؟

الفلسفة من حيث الأصل وهذا خطاب موجه للملاحدة والمؤلهة في الآن نفسه – مثلها مثل العلم تماماً، ليست مؤمنة ولا ملحدة، لا تقية ولا كافرة، لا إسلامية ولا مسيحية، ولا يهودية أو بوذية أو مجوسية.

الفلسفة بالتحديد الدقيق هي (منهج للتفكير عقلياً في الذات وفي الوجود عامة لا أقل من ذلك ولا أكثر)، هي مغامرة استكشافية بتعبير أهل اليونان، نقوم بها لذاتها فقط، هي نشاط يقصد معرفة ما يقبع وراء "الواضح" المسلم به، ووراء المشكوك فيه أيضاً، هذه إحدى سمات الفلسفة[٢١].

سادساً: نتاج البحث

بعد أن بينا مكانة العقل في الإسلام في تطوير الفكر الفلسفي نود في ختام هذا البحث أن نؤكد على الملاحظتين التاليتين:

١- عندما يراد الحديث عن الإسلام فإنه يجب التفريق بوضوح بين أمرين أولهما: الإسلام كدين وكتعاليم أثبتت وجودها وفاعليتها وتأثيرها على مر القرون. وثانيها: الوضع الحضاري الراهن للمسلمين في عالم اليوم.

فمبادئ الإسلام في تطوير الفكر وحمايته لا تزال قائمة ومؤهلة للقيام بنفس الدور الذي قامت به في السابق، وذلك لأن الإسلام ليس ديناً جامداً، ولكنه دين للحياة بشمولها، يدعو إلى التغيير والتطوير المستمر للحياة، وفي الوقت نفسه يقرر أن المبادئ مهما كانت

سامية فإنه لا يمكن أن تحقق نفسها إلا عن طريق إرادة بشرية تعمل على تحقيقها. وهذا قانون قرآني **{إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}**(٢٢).

٢- لم يعد هناك في عصرنا الحاضر مجال لاستمرار الجدل العقيم بين الحضارات فالأخطار التي تهدد البشرية اليوم ليست أخطاراً تحيط بحضارة معينة وإنما هي أخطار تحيط بالإنسانية كلها.

ولذلك يجب أن تعمل الحضارات المختلفة جاهدة على زيادة التفاهم فيما بينها.

ونعتقد أنه قد أن الأوان أن ينظر العلماء الأوربيون إلى الإسلام وحضارته نظرة موضوعية وعادلة، دون التأثر بعقد قديمة أو جديدة، وبهذه الطريقة وحدها يمكن إجراء حوار حضاري مثمر بين الحضارتين الإسلامية والأوربية.

٣- أن كل حادث لابد له من محدث، دل على ذلك العقل والشرع قال تعالى: {**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ**}.

٤- أن وجودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها، وبين الكائنات بعضها مع بعض، بلا اضطراب ولا تصادم، يمنع منعاً باتاً أن يكون وجودها صدفة من غير موجود، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟! أستمع إلى قول الله تعالى {**لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**}.

٥- يستخف الإنسان المغرور أحياناً فيتصور أنه يمتلك مقاليد كل شيء وأنه يرزق ويعطي ويمنع ويبني ويعمر، ويحي موات الأرض، ويرفع الاستغلال عن كامل الناس وينشر العدل والخير ويغير التاريخ.

ألا يمتلك العلم الذي ينقل به الجبال ويحول مجاري الأنهار، ويقيم الحدود وينزل المطر، ويخضر الصحاري، ويشفي المرضى، ويطارد الميكروب، ويقضي على الفيروس؟

وهو ينخدع في نفسه حينما يرى الظروف تستجيب لإرادته والبيئة المادية تنقاد لمشيئته والعجينة الاجتماعية تتشكل في يده وتذل لسلطانه. تلك الخدعة كانت الخميرة التي خرج منها الجبابرة والطغاة وسافحوا الشعوب.

٦- **فالحقيقة** أنه لا أحد يستطيع أن يرزق أو يعطي أو يبني أو يعمر أو يمنح حرية أو يرفع ظلماً إلا الله وأن كل ما يفعله الإنسان من هذه الصالحات.

هو فعل بالوكالة والاستخلاف والإذن والمشيئة الإلهية، وأن الحاكم طول الوقت مجرد أداة لمشيئة الخالق، والأسباب الطيعة في يده مظهر من مظاهر التيسير والتمكين الإلهي(٢٣).

٧- ومن المؤسف أن تجد إلى الآن وبين مثقفينا في الوطن العربي من يروج للفكر الماركسي ويدعو له برغم ما تبين من هزاله وتناقضاته وثغراته وبرغم ما حدث من غروب هذا الفكر وانقراضه في أوربا مع الأفكار الأخرى التي غربت وانقرضت مثل

الفرويدية والوجودية والعبثية وسائر الموضات التي لمعت واختفت في الأربعينيات من هذا القرن.
ولكن على ما يبدو دائماً أن الأمر مع الماركسية مختلف فالشيوعي لا يدعو للماركسية لأنها حق ولكنه يدعو لها لسبب آخر أعمق وهو أنها توافق هواه ورغبته الباطنة في أن يهدم ويثأر وينتقم.. فهي تلتقي مع عيوبه العدوانية ومع بذور الحقد في نفسه خاصة إذا كان فقيراً مطحوناً وفي أدنى السلم الاجتماعي ويحلم بالقفز إلى أعلى السلم بانقلاب يغير كل شيء فحماسة المذهب حماس شخصي وإن بدا في الظاهر حماساً اجتماعياً.

٨- النسبية في الأصل مفهوم إلحادي كان غرضه الأساسي المراوغة وتمييع القضايا الجوهرية كما يقول (مراد وهبة) قولته الشهيرة ((التفكير في النسبي بما هو نسبي) لكن النسبية نظرية خاطئة منطقياً وفسلفياً، وذلك للأسباب التالية:
١- جملة ((كل شيء نسبي)) هي جملة نسبية أيضاً فالنسبية ذاتية الهدم.
٢- كيف يمكن لك أن تفرق ما بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة وتعتبر أن الحقيقة نسبية فقط إلا إذا كانت تعرف مقدماً كليهما لكي تجري هذه المقارنة.
٣- عندما نقول أن الحقيقة هي أنه لا توجد حقيقة فهذا أمر افتراضي لأنه إذا كانت هذه الجملة صحيحة فإنها غير حقيقية!!
٤- النسبية ذاتية التدمير لأنها تفترض بعض المعرفة تختص بالواقع لكي تنكر أي معرفة بالواقع.
٥- النسبية لا يمكننا استيعاب أن تكون موقف حياتي دائم.. بمعنى أدق يمكن أن يفهم هذا الموقف الحياتي كموقف عارض أو مرحلي، فمعنى أن يعيش الإنسان ويموت تحت هذا العنوان (نسبي) هذا مخالف لطبيعة الإنسان البشرية فلو كانت النسبية حالة مريحة وممتعة ما حصل تقدم في حياة البشر.. فبما أنه يوجد تقدم في حياة البشر إذن البديهة المركبة في البشر هي الوصول للحقائق والاستقرار عليها، إذن النسبية والتذبذب مخالفة لما فطرنا عليها.. والنسبية لا يمكننا أن نستوعبها إلا إذا كانت موقفاً مؤقتاً أما أن تكون موقف حياتي دائم فهذا مستحيل لأنها ساعتها ستتناقض مع نفسها!! [٢٤].

٩- مهمة التيار الإسلامي الكشف عن العناصر الثورية في الدين أو تأويل الدين على أنه ثورة.
فالدين في ذاته ثورة وكان الأنبياء ثواراً مصلحين ومجددين فمثل إبراهيم عليه الصلاة والسلام "ثورة العقل ضد التقاليد وثورة التوحيد ضد التجسيم".
ومثل موسى (عليه السلام) ثورة التحرر ضد الطغيان، وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) ثورة الفقراء والعبيد ضد سادة قريش وطغاتها من أجل إقامة مجتمع حرية وإخاء ومساواة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

(أعمال الدكتور مصطفى محمود)

١- مصطفى محمود "رحلتي من الشك إلى الإيمان) الناشر: قطاع الثقافة دار أخبار اليوم الطبعة الأولى ٢٠٠١.

٢- مصطفى محمود (اعترافات مصطفى محمود) الناشر: دار النشر هابتيه الطبعة السادسة ١٩٩١ ص ٥ – ٧.

٣- مصطفى محمود (الإسلام ما هو) الناشر دار المعارف ١٩٨٦.

٤- مصطفى محمود (الروح والجسد) الناشر أخبار اليوم ٢٠٠١.

٥- مصطفى محمود (الله والإنسان) الناشر الحياة للدعاية ٢٠١٥.

٦- مصطفى محمود (حوار مع صديقي الملحد) الناشر: مؤسسة روزاليوسف.

٧- مصطفى محمود (هل هو عصر الجنون) الناشر أخبار اليوم ٢٠٠٨.

٨- مصطفى محمود (أكذوبة اليسار الإسلامي) الناشر قطاع الثقافة. ٢٠٠٩.

٩- مصطفى محمود: (رأيت الله) الناشر دار العودة – بيروت – الطبعة الأولى ٢٠١١.

١٠- مصطفى محمود: (الوجود والعدم) الناشر الحياة للدعاية والإعلان ٢٠١٥.

١١- د. عبد الحليم محود (المنقذ من الضلال) الناشر دار الكتب الحديثة – مصر ٢٠١٠.

١٢- صحبة الإسلام (د. أبو حامد الغزالي) ميزان العمل الناشر: دار الكتب العلمية للطباعة ١٩٧١.

ثانياً: المراجع العربية

١٣- د. هيثم طلعت سرور (موسوعة الرد على الملحدين العرب) الناشر: مكتبة كتب إسلامية ٢٠١٤.

١٤- د. محمد ناصر (الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج) الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث ٢٠١٧.

١٥- د. عمرو شريف (رحلة عقل) الناشر: الهيئة العامة للكتاب ٢٠١١.

١٦- د. حسن حنفي (التراث والتجديد) الناشر: المؤسسة الجامعية للتراث والنشر ٢٠١٠.

١٧- د. عبد الرحمن بدوي (من تاريخ الإلحاد في الإسلام) ١٩٨٠.

١٨- د. عاطف العراقي (ثورة النقد في عالم الفلسفة) ٢٠١١.

١٩- د. عثمان أمين (التأملات في الفلسفة الأولى ديكارت ٢٠٠٩).

٢٠- د. يوسف كرم (تاريخ الفلسفة الحديثة) الناشر: مؤسسة هنداوي للتعليم ٢٠١٢.
٢١- د. محمد ناصر (الإلحاد أسبابه ومفاتيح العلاج) الناشر – مؤسسة الدليل ٢٠١٧.
٢٢- برنراند رسل (حكمة الغرب) تحقيق فؤادج زكريا – الناشر: عالم المعرفة ١٩٨٣.
٢٣- د. ماجد بن سليمان الرسي (هل الله موجود) الناشر: مكتبة كتب إسلامية ٢٠١٥.
٢٤- د. حسن حنفي (من العقيدة إلى الثورة) الناشر: المؤسسة الجامعية للتراث والنشر ٢٠١٠.

بعض المقالات عن المفكر العربي مصطفى محمود:-

٢٥- مقال محاولة لفهم ومقاربة ظاهرة الإلحاد https://almaaal.com.